

## الفصل الأول

# فلاسفة يونيا<sup>١</sup>

كان مهد الفلسفة الذي فيه نشأت، وفي كنفه درجت، إقليم يوناني في آسيا الصغرى، منه مدينة كانت تدعى ملطية Miletus، فيها أضاءت نار الفكر الفلسفي خافتة محصورة أول الأمر، ثم شاء لها القدر أن يمتد نورها ويتوهج، ويُتعهد بالنماء، حتى يبلغ شأواً بعيداً. في ملطية — في القرن السابع قبل ميلاد المسيح — نهض الإنسان فحطم أغلال الضرورة التي كبلته حيناً طويلاً من الدهر، وخصص شطراً من حياته في التفكير المجرد من كل القيود، فنظر إلى هذه الطبيعة التي يزخر عباها بالمظاهر المختلفة، والكائنات المتنوعة، وأخذ يتفكر في خلقها ويحاول تعليلها.

وأول ما استرعى منه النظر واستدعى إعمال الفكر، هذا التغير الدائب الذي يطرأ على الأشياء جميعها، فما هو ذا كل شيء — كانت ما كانت مرتبته في الحياة — يكون بعد أن لم يكن، ويظل حيناً يقصر أو يطول، ثم ينحل ويتلاشى كأن لم يعن بالأمس، فأنى جاء وإلى أين ذهب؟ إنه لم يُخلق من العدم ولم ينحدر إلى العدم، بل تكوّن من مادة موجودة فعلاً،

---

<sup>١</sup> يونيا أو أيونيا Ionia إقليم وجزر في الجانب الغربي من آسيا الصغرى على بحر «إيجه» كان يسكنها النازحون من «بيلو بونيسيا»، وقد سُميت يونيا باسم قبيلة من القبائل الإغريقية القديمة، وقام في هذا الإقليم اثنتا عشرة مدينة، كانت كل مدينة تحكم نفسها حكماً مستقلاً ديمقراطياً، ولكنها مرتبطة بعضها ببعض بالمصالح المشتركة والشعائر الدينية.

ومن أشهر هذه المدن إفسوس Ephesus التي يُقال إنها مدينة أهل الكهف، وساموس، وميليتوس Miletus وقد عربها العرب إلى ملطية، وكان منها الفلاسفة المشهورون: طاليس الملطي، وأنكسيمندُر، وأنكسيمينس، فنُسب هذا الاتجاه من الفلسفة إلى هذا الإقليم، وقيل الفلسفة اليونية والفلاسفة اليونون.

ثم استحال إلى مادة لا تزال موجودة كذلك، فمهما يكن من أمر هذه الأشياء التي تراها في الأرض أو في السماء، ومهما يكن من ألوانها المختلفة وأشكالها المتباينة، فهي جميعاً أجزاء من مادة بعينها، يطرأ عليها التغير والتحول، فماذا عسى أن تكون تلك المادة؟

هذا سؤال عرضته الطائفة الأولى من الفلاسفة في يونيا، وحاولوا الإجابة عنه.

إذن فقد فكر الإنسان أول ما فكر، في «المادة» التي يتألف منها الوجود، وهذا طبيعي معقول؛ لأن عقل الطفولة الفج لا يستطيع أن يفهم أو يسيغ إلا العالم المادي الذي يحيط به، وهو لا يقوى على التفكير في المسائل العقلية غير المحسنة إلا بعد النضوج، فليس غريباً أن تبدأ الفلسفة بالتفكير في المادة التي خُيِّلَ إليها وقتئذ أن لا وجود لغيرها، وأن ليس الإنسان نفسه إلا ظاهرة مادية من ظواهرها، ثم تُدرج صاعدة حتى تصل إلى التفكير المجرد المطلق عند أفلاطون وأرسطو.

وكان أعلام تلك المدرسة اليونانية رجال ثلاثة: طاليس، وأنكسيمندُر، وأنكسيمينس.

## (١) طاليس Thales

٦٢٤ ق.م - ٥٥٠ ق.م (تقريباً)

أرسل الإنسان بصره إلى الكون يستطلع تلك المادة التي تتكون منها الأشياء جميعاً، والتي تردت إليها الأشياء جميعاً، وإذا التمس الفكر الإنساني مادة تكون أصلاً لكل ما يشمل الوجود من ظواهر، فلن يصادف إلا عدداً قليلاً من ألوان المادة التي يجوز عقلاً أن تكون كذلك؛ إذ لا بدُّ لتلك المادة الأولية المنشودة أن تكون مرنة شديدة المرونة في قابليتها للتشكل في صور مختلفة، وألا تكون محدودة الصفات محصورة الخواص حتى تتسع لكل شيء، أفلا تستطيع أن تحزر ماذا تكون تلك المادة الأولية عند قوم يتاخمون البحر، فترسخ في نفوسهم صورته، ويدوي في أسماعهم هديره كلما أمسى مساءً أو أصبح صباحاً؟ إنها الماء! فليس عجباً إذن أن ينهض طاليس، أول فيلسوف عرفته الدنيا وأجمع على فلسفته المؤرخون، ويجهر بأن الماء هو قوام الموجودات بأسرها، فلا فرق بين هذا الإنسان وتلك الشجرة وذلك الحجر إلا اختلاف في كمية الماء الذي يتركب منها هذا الشيء أو ذاك، أليس الماء يستحيل إلى صور متنوعة فيصعد في الفضاء بخاراً، ثم يعود فيهبط فوق الأرض مطراً، ثم يصيبه برد الشتاء فيكون ثلجاً؟ وإذن فو غاز حيناً، وسائل حيناً، وصلب حيناً، وكل ما يقع في الوجود لا يخرج عن إحدى هذه الصور الثلاث.

كان الماء عند طاليس هو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات وإليها تعود، وقد ملأ عليه الماء شعاب فكره حتى حُيِّلَ إليه أن الأرض قرص متجمد، يسبح فوق لجم مائية ليس لأبعادها نهاية، ويرجح أرسطو أن يكون طاليس قد خلص إلى هذه النتيجة لما رأى أن الحياة تدور مع الماء وجودًا وعدمًا، فتكون الحياة حيث الماء وتنعدم حيث ينعدم.

تلك خلاصة موجزة لرأي طاليس في نشأة الكون، وقد كان عالمًا بالرياضة، عالمًا في الفلك، حتى قيل إنه تنبأ بكسوف الشمس الذي حدث سنة ٥٨٥ ق.م قبل وقوعه، وقيل أيضًا إنه علم المصريين كيف يقيسون ارتفاع الهرم بواسطة ظله، وإنه ابتكر طريقة لمعرفة أبعاد السفن من الشاطئ بالوقوف على نشز عال من الأرض، ولكنه في الفلسفة لم يؤثر عنه إلا هذان المبدآن: الكون يتألف من ماء، والأرض قرص يسبح فوق ماء!

وإذا كانت هذه الفكرة الساذجة هي كل إنتاجه الفلسفي، فكيف جاز لنا أن نحشره في زمرة الفلاسفة، بل نجمع على أنه أبو الفلسفة ومُنشئُها؟<sup>٢</sup> ولكنك إن كنت تستطيع أن تنكر على الفلسفة المائية خطرها وقدرها، فلن تنكر على طاليس أنه أول إنسان حاول أن يفسر الكون، لا بالأساطير ولا بقوى الآلهة المتعددة التي اتخذها أسلافه، بل على أساس علمي، وسواء فشلت محاولته أم لم تفشل، فهي المحاولة الفلسفية الأولى على كل حال، ولم تطالب طاليس أن يأتيك بتعليل صحيح للكون؟ ألا يكفيك أنه أثار المشكلة لخلفه؟ ألا يكفيك أنه وضع الأساس فجاء من بعده يقيمون البناء عليه؟ ثم ألا يكفيك أنه طبع الفلسفة طابعًا خاصًا ظل يلازمها إلى عهد سقراط؟ نعم، هو أول من أدرك أن هذه الكائنات المتباينة لا بُدَّ أن تكون قد صدرت عن أصل واحد، ثم أخذ يبحث عن ذلك الأصل، فشق بذلك الطريق، وأخذت الفلسفة تدور حول هذه المشكلة وتجيب عن سؤاله: رأى طاليس أن الماء أصل الوجود، وقال أنكسَمَنْدَرُ: بل هو مادة لا تحدها حدود، وأعلن انكسمينس أنه الهواء، وذهب الفيثاغوريون إلى أنه العدد، وأجاب هرقليطس بل هو النار، ورده إمبردوقليس إلى عناصر أربعة، وقال ديمقريطس: إنه ذرات ... وهكذا لبث الفلاسفة يقتفون أثر زعيمهم طاليس في جوهر البحث وأساسه، وإذن فطاليس هو الذي صبغ الفلسفة فيما قبل سقراط بتلك الصبغة المادية التي عُرفت بها، وحسبه ذلك خطرًا.

<sup>٢</sup> يجمع العادون على أن طاليس أحد الحكماء السبعة، وقصة هؤلاء الحكام لم تثبت تاريخيًا، وهم إن اختلفوا في عد السبعة لم يختلفوا في عد طاليس أحدهم.

## (٢) أَنْكْسِمَنْدَرُ Anaxemander

٦١١ ق.م-٥٤٧ ق.م (تقريبًا)

كلا! لا يمكن أن يكون الماء أصلًا للوجود، فمهما بلغ الماء من المرونة وقابلية التشكل، فهو ذو صفات معروفة معينة تستطيع أن تميزه بها عن المواد الأخرى، ومعنى ذلك أن ثمت صفات تناقض صفات الماء؛ (لأنك لا تدرك الصفة إلا إذا أدركت نقيضها، فلا تفهم الحرارة إلا إذا اقترنت في ذهنك بالبرودة، فإذا انعدم هذا التقابل انعدمت كذلك الخصائص والصفات)، وما دام الأمر كذلك، فلا يُعقل أن تكون المخلوقات جميعًا على تناقض صفاتها مشتقة من أصل واحد ذي صفة معينة معروفة، إنما أصل الكون مادة لا شكل لها، ولا نهاية ولا حدود.

هكذا قال أَنْكْسِمَنْدَرُ ثاني فلاسفة المدرسة اليونية، والذي يُقال عنه: إنه كان تلميذًا لطاليس لأنه عاصره وعاش معه في ملطية، وكان واسع العلم بالجغرافيا والفلك، وربما كان أول فيلسوف يوناني كتب رسائل في الفلسفة، ولكنها فُقدت، وقوله هذا الذي أشرنا إليه مردود عليه؛ لأنه لا يمكن كذلك أن تنشأ الأشياء كلها ولها هذه الصفات المختلفة من مادة لا شكل لها، وإلا فمن أين جاءت صفات الحديد والنحاس والخشب وما إلى ذلك وهي مختلفة كل الاختلاف مع أنها اشتقت جميعًا من مادة واحدة لا تميزها صفات كما يقول؟

كذلك لم يستطيع أَنْكْسِمَنْدَرُ أن يوضح في جلاء كيف تكوّن العالم — أو العوالم المتعددة كما كان يعتقد — من تلك المادة التي يحدثنا عنها، وكل ما تظفر به منه شرح غامض لا تكاد تتبين منه صورة جلية، ولكنه قدم لنا رأيًا في نشأة الحياة وتطورها فوق الأرض لعله قريب جدًا مما وصل إليه العلم الحديث في أواخر القرن الماضي، فقد كان يرى أن الأرض كانت سائلًا ثم أخذت تتجمد شيئًا فشيئًا، وفي خلال ذلك كانت تنصب فوق الأرض حرارة لافحة تبخر من سائلها بخارًا يتصاعد ويكوّن طبقات الهواء، فهذه الحرارة عندما التقت ببرودة الأرض كوّنت الكائنات الحية، وقد كانت تلك الكائنات أول أمرها منحطة، ثم سارت في طريق التطور إلى درجات أعلى فأعلى بما فطر فيها من دافع غريزي يدفعها إلى الملاءمة بين أنفسها والبيئة الخارجية. إذن فقد كان الإنسان في أول مراحل حياته سمكة تعيش في الماء، فلما انحسر الماء بفعل التبخر اضطرت الأسماك المختلفة إلى الملاءمة بينها وبين البيئة، فانقلبت زعانفها على مر الزمان أعضاء صالحة للحركة على

الأرض اليابسة، وهي ما ترى من أرجل وأيدٍ، ولعلك مدرك في سهولة ما بين هذا الرأي ونظرية «دارون» من شبه.

### (٣) أَنْكْسِمِينِس Anaximenes

٥٨٨ق.م-٥٢٤ق.م (تقريبًا)

إذا كان الماء الذي فرضه طاليس أصلًا للكون لم يصادف من العقل اطمئنانًا؛ لأنه ليس من الشمول بحيث يسع الكون بأسره، وإذا كانت مادة أَنْكْسِمَنْدُرُ التي ليس لها شكل ولا حدود لم تسلم من النقد، فقد نهض أَنْكْسِمِينِس واختار مادة ثالثة فيها الشمول الذي ينقص الماء، وفيها الصفات التي تعوز مادة أَنْكْسِمَنْدُرُ: ألا وهي الهواء، فهو ذو صفات معروفة لا تُنكر، وهو في نفس الوقت يشيع في كل أنحاء الوجود، يغلف الأرض ويملاً في نظره جوانب السماء، بل ويتغلغل في الأشياء والأحياء مهما دقت، أليست الحياة في صميمها أنفاسًا من الهواء تتردد في الصدر شهيقًا وزفيرًا؟ إذن فهي الجوهر الأول الذي صدرت عنه جميع الكائنات، يتكاثر حينًا فيكون شيئًا، ويتخلل حينًا فيكون شيئًا آخر، والهواء إذا أمعن في تخلخله انقلب نازًا، فإذا ارتفعت كونت الشمس والأقمار، وإذا هو أمعن في التكاثر انقلب سحابًا، ثم أنزل السحاب ماءً، ثم تجمد الماء فإذا هو تربة وصخور، هذا وليست الأرض إلا قرصًا مسطوحًا يسبح في الهواء.

وقد يظن الباحث للوهلة الأولى أن أَنْكْسِمِينِس قد انحط بالفلسفة عن المستوى الذي كان قد بلغه أَنْكْسِمَنْدُرُ؛ ذلك لأنه عاد إلى موقف طاليس، بفرضه أن العنصر الأول الذي نشأ منه الكون كان مادة معينة محدودة، ولكن مهما قيل في هذا فلا شك في أن أَنْكْسِمِينِس قد تقدم بالفلسفة خطوة إلى الأمام بعد أَنْكْسِمَنْدُرُ؛ إذ كان هذا الأخير مهوشًا غامضًا حين أراد أن يبين كيف تخرج المادة التي لا شكل لها هذه الأشياء التي تراها، أما أَنْكْسِمِينِس فيعمل تنوع الأشياء بالتخلل والتكاثر، ولو أننا أخذنا بنظرية هؤلاء الفلاسفة القدماء من أن أنواع المادة على تعددها واختلاف ألوانها إنما نشأت في الأصل من نوع واحد لاعترضتنا مشكلة عسيرة، هي هذا الاختلاف الذي نراه في صفات العناصر الموجودة بيننا، فمثلًا لو كانت هذه الورقة مُكوَّنة حقيقةً من هواء، فبِمَ نعلل لونها وسائر صفاتها؟ إما أن تكون هذه الصفات موجودة في أول الأمر في المادة الأصلية أولًا، فإن كانت موجودة فيها نتج أن المادة الأولى لم تكن مادة واحدة متجانسة كالهواء، ولا بد أنها كانت مزيجًا من أنواع

مختلفة من المادة، وإن كانت غير موجودة فيها فكيف نشأت للأشياء خواصها؟ كيف تخرج من الهواء تلك الصفات التي نراها في الأشياء مع أنها ليست فيه؟ لعل أيسر سبيل للتخلص من هذه المشكلة هي أن نبني الكيف على أساس الكم، فنعلل الأول بالثاني، بمعنى أن صفة الشيء نتيجة كمية المادة التي تشغل الحيز، وذلك ما قصد إليه أُنْكْسِمِينِس بالتخلخل والتكاثف.